رندة حيدر

امرأتان في امرأة : كتابة روائية جديدة

في خضم النتاجات الروائية التي تتوالى على الظهور في ادبنا العربي ، تبرز رواية «امرأتان في امرأة» (*) كشاهد على ميلاد كتابة روائية جديدة .

والكتاب ليس حكاية تحرر انثى ، او تمرد فتاة ، انما استطاعت الكاتبة ان تضمن تجربة بطلتها الفردية ، تجربة انسانية شاملة ، انها مسيرة الانسان وسعيه نحو تحقيق ذاته في وجه ضغوطات المجتمع وتحدياته .

« بهيه شاهين » فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، تسعى بخطى ثابتة للكشف عن حقيقة الوجود ، وعن ماهيته الاصيلة الكامنة وراء مظاهر الاشياء ، لانها في ذلك تسعى نحو حقيقتها هي .

غير ان مسيرتها هذه وسعيها الحثيث يتعرضان لاحباطات العالم المحيط المتعددة ، وفي مقدمتها التربية التقليدية القائمة على الكبت والتحريم،وخالقة اسطورة الانثى (الفرد الناقص الضعيف). الى جانب ذلك تقف التقاليد (التي تمثل القيم الاخلاقية في المجتمع) على تقييد ارادة الفرد وسلبه حريته وذاتيته ، وتعمل قطاعات المجتمع المختلفة بكل مؤسساتها على تعميق هذا الاستلاب ، الذي هو في حقيقته استلاب للفرد بشكل عام بغض النظر عن جنسه ، ذكرا كان ام انثى .

وتختار الكاتبة اللحظة الزمنية المثلى في حياة بطلة روايتها ، سن الثامنة عشرة ، وهي سن انحسار المراهقة امام تفتح الوعي وازدياد الرغبة في التحرر والاستقلال والبحث عن هوية مميزة.فتصطدم هذه الرغبة بالشخصية الكامنة في الذات التي صنعها المجتمع في نفوس افرادها ، دون ان يكون لهؤلاء أية ارادة حقيقية فيها ، انها ما اراده المجتمع ، وعلى الافراد ان يتقبلوا ، والا فسيكون نصيبهم اللعنة ، تلك اللعنة التي نبذ من خلالها المجتمع « بهيه شاهين » في نهاية القصة .

نرى « بهية » في بداية القصة اسيرة صراع عنيف بين صورة ما تريده حقا ، وبين الصورة التي يمليها المجتمع.« اسمها فوق القلاف يبدو تحت عينيها غريبا كاسم تلميذة اخرى مطيعة ومؤدبة ، تسمع الكلام وتعمل الواجب ، وتدفن حقيقة نفسها في طيات الورقة المختفية .. كالحاجز الطويل الضخم كان أبوها يقف بينها وبين نفسها الحقيقية » .

وتلقي الكاتبة اضواء على جذور المشكلة ، لتشير أن « بهية » في بحثها عن حقيقة نفسها ، انما تتوق الى الرجوع الى حالة التوافق الامثل ، التي كانتها قبيل ولادتها ، والتي تحطمت الى الابد ، منذ أن اصبح لها جسد مميز ، منفصل عن جسد امها ، فتبدأ من هنا ما تسميه المأساة : « منذ طفولتها وهي تحس المأساة حول جسدها الخاص .. داخل كل خلية من خلاياها رغبة جامحة في العودة من حيث أتت ، في الخروج من مجال الجاذبية الارضية ، وفي ان تصبح بغير جسد ، رغبة جامحة في الذوبان .. والتلاشي النهائي »

لذا ستكون هذه الرغبة هدف البطلة الاول الى حد التضحية بالنفس ومن جهة اخرى الخوف الشديد والشك في قدرتها على تحقيقها ، من هنا محاولتها الهرب من نفسها .

في أتون هذه المشاعر المتناقضة ، التي ليست في حقيقتها سوى دلائل مظهر واحد ، يبدأ رفض « بهية » لمعتقدات الناس الذين لا يحرمون سوى الرغبات الحقيقية لانها قوية ، فتبحث في هذه المحرمات عن رغبات الانسان الحقيقية الدفينة لتتوصل الى حقيقة ذاتها . وما رفضها للمظهر المقيد لابناء جنسها سوى رفض لنظام التحريم والاحباط،الذي على أساسه تربي الفتاة ، فتصور لها الرغبة الجنسية شيئا غير طبيعي يوحي بالتقزز ، وتقوم على تحقير الاعضاء الجنسية ، انها باختصار عملية بناء مخلوق لا جنسي ، والغرابة أن على المرأة ان تتحول بعد الزواج الى مخلوق جنسي ، ينام ويصحو ويأكل ويشرب الجنس .

من خلال هذه الحقائق ، واخرى عديدة ، ينفتح وعي « بهية » على حقائق الاشياء ، كانت تشعر ان الطلاب من حولها ، بالرغم من عيونهم ، لا يمارسون عملية النظر حقيقة ، انما يرون ظلال الاشياء دون حقيقتها ، انهم افراد مستلبون ، ضحايا بريئة لعمليات اخضاع وترويض جعلتهم ظلالا مموهة للحقائق من هنا عمق الهوة التي تفصل بين « بهية والاخرين » الناس لا يريدون انسانا حقيقيا تفزعهم حقيقته الى حد الشروع في قتله او قتله فعلا . ولذلك لا بد لهذا الانسان أن يكون مطاردا دائما ، او مقتولا او محكوما عليه ، او مسجونا ، او معزولا في مكان بعيد عن الناس .

في هذا المقطع تلخص الكاتبة استحالة العلاقة بين شخصية البطلة من جهة ، والعالم المزيف من جهة اخرى ، فرفض البطلة لابيها نابع في الحقيقة من رفضها لتلك القوة الرهيبة (الوظيفة) التي تستعبد والدها ، وتجعله آلة ، او نسخة مكررة من الوف مستكينة مستسلمة مثلها ، وهو رفض لسلطة القمع المتمثلة في سطوة الاب على الابناء ، وتحكمه بمصائرهم ، ورفض للضغط الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع من خلال الاب تحت ستار الاخلاق .

ومن خلال هذا كله تدرك بهية عبث الاشياء من حولها ، عبث كلام الاستاذ في الجامعة ، وعبث المحاضرات ، وعبث الكون كله .

وفي وسط هذه النوامة يظهر « سليم » ومعه تبدأ عملية ولادة جديدة للبطلة ، اذ يستطيع « سليم » أن يقهر ضعفها وترددها ، ويحررها من ذاتها التقليدية التي تضغط عليها ، ويعيد اليها ارادتها، وقدرتها على التقرير وعلى تحقيق ما تريده ، فتدرك بهية : « أنها بطريقة سحرية ، ستصبح انسانة اخرى غير بهية شاهين ، أي أنها ستصبح نفسها الحقيقية » .

وتبدأ ثورة البطلة بالتحرر اولا من رابطة الدم التي تقيدها بامها وأبيها واخوتها ، وبدات « بهية » من خلال « سليم » تشعر بخصوصيتها الفردية ، وبدأت تتحسس كينونتها الذاتية وهويتها الخاصة ، واستطاعت أن تحقق ما تاقت دوما الى تحقيقه ، استطاعت ان تغني معه حتى التلاشي « كقوة الارض حين تشد اليها الجسد .. التفت ذراعاه حولها وذراعاها حوله ، وبتلك الرغبة العنيفة في الذوبان في الكون ، وفقدان الاحساس بالجسد وثقله ، والفناء الكامل والتلاشي في الجو كذرات الهواء » .

وبدات بهية تشعر بدماء جديدة تجري في عروقها وأحست انها

(*) تأليف الدكتورة نوال السعداوي،منشورات دار الآداب-بيروت

اليوم غيرها بالامس ، وكأن حياة جديدة نشأت من العدم . لقد نجحت اخيرا في قهر ما هو تابع لغير ارادتها ، فحققت الانسانة الحية الحقيقية فيها : « مزقت الغشاء الذي كان يفصل بينها وبين الحياة، غشاء رقيق غير محسوس ، وغير مرئي كلوح من الزجاج يفصلها عن جسدها ، ويقف بينها وبين حقيقتها » .

الحب مع بهية اتخذ شكلا جديدا انه نوع من لقيا الذات والكشف عن كنهها الاصلي ، سليم ليس سوى الوجه الاخر لبهية ، الوجه المتمرد الحقيقي الذي تحدى قوى القمع والضغط ، انه الثورة التي مزقت استار الخوف التي كانت تظلل بهية ، واطلقتها حرة حقيقية بمواجهة الحياة .

و « بهية » ليست مجرد انثى تعاقب لتمردها بتزويجها من انسان تمقته ، فتهرب منه في ليلة العرس بعد أن تضربه ، بل هي مصر الثورة ، مصر الرافضة للانحراف السياسي ، والكبت الاجتماعي، والقمع البوليسي .

« وسليم » هو الثورة الواعية الكامنة في جسد الامة ، وعلى بهية ان تقطع المسافة فيما بينهما لتتحد به ، عليها ان تذوب في كيانه بشكل لا نهائي ، عندها فقط تستطيع ان تحقق ذاتها .

واختارت بهية الثورة طريقا لها ، فثارت في وجه التقاليد التي تريد استعبادها ، وفي وجه الانظمة التي سلبتها حريتها . ولقد حاول المجتمع بالمقابل ان يجهض ثورتها ، فلما فشل نبذها ، وحاول في النهاية تصفيتها جسديا عن طريق الاعتقال والتعذيب . وكان هذا ما ارادته « بهية » منذ البداية ، لانها رأت فيه الوجه الحقيقي لتلك الانظمة الفاسدة التي تحاول اخفاءه بلا جدوى ولقد استطاعت بهية تحدي العذاب ، وأصبحت ذات مقدرة خارقة لتحمل الارهاب لانها تخلصت من الوعي الانساني المزيف واصبحت الان تتمتع بقدرتها الواعية .

وفي نهاية القصة نشهد « بهية » وهي تحاول اللقاء مرة ثانية بسليم ، وعندما تراه تكون يداها مغلولتين بالقيود والسلاسل ، وكأنما ارادت الكاتبة ان تقول ان ليس في وسع مصر اليوم تحت وطأة ما تعانيه من ظروف ان تدرك الثورة الحقيقية ، فالى متى سوف تبقى السلاسل تقيدها ؟ .

من خلال هذا العرض التحليلي نستطيع ان نقول اننا امام تجربة جديدة للقصة العربية .

واذا كان يلذ لبعض النقاد التحدث عن نتاج قصصي نسائي مميز واخر مذكر ، فلقد استطاعت الكاتبة ان تحطم هذه الحدود (هذا ان كانت موجودة حقا) لتجعل من كتابها سبرا اجتماعيا شديد الغور لواقعنا العربي ، وكشفا صادقا وموضوعيا (الى حدود الموضوعية العلمية) عن حقيقة مشكلات مجتمعاتنا انطلاقا من الفرد فالعائلة ، فالجامعة ، فالمجتمع الكبير ، مجتمع كل الناس .

ولقد اتخذت القاصة من وضع الفتاة في المجتمع العربي مدخلا لما تريد ان تقوله في هذا الصدد . فمجتمعنا العربي مجتمع ، صنع الرجال قيمه ، ووضعوا له مثله العليا ، واصطنعوا له قوانينه ، واضطلعوا بمقدراته . وحتى اليوم وبالرغم من انتشار الوعي ، وازدياد نسبة المتعلمات ، والعاملات في مختلف القطاعات ، ما زالت الانثى تخضع لنفس التربية التقليدية التي تعتبرها كائنا ضعيفا ناقصا (بالرغم من كونها تتمتع في مجالات عملها بنفس القدرة الانتاجية للرجل) . فمشكلة المرأة في المجتمعات المتخلفة ، والرأسمالية الكبرى (التي تشهد حاليا حركة لتحرير المرأة) ليست سوى مظهر من مظاهر التهالك الاجتماعي الذي على اساسه قامت هذه النظم .

فمشكلة المرأة في المجتمع العربي جزء لا يتجزأ من مشكلة التخلف الذي تعاني منه باقي قطاعات المجتمع . من هنا « فبهية » ليست مجرد انثى فقط ، انما تحمل في جوهر شخصها روح الجيل الجديد برمته ، الجيل الرافض لوصاية مجتمع قانع بالذل « مستسلم للزيف الذي يسلبه يوما بعد يوم . » حقيقته ، ويجعله يقنع باوهام ويعيش على هامش الحياة ، ويشل قدرته على الرفض ، فسيصبح قطعيا طيعا في ايدي التسلط والارهاب .

لذلك فان ثورة « بهية » ليست موجهة ضد سلطة اب او وصاية مجتمع ، وانما ثورة ضد ايديولوجية القمع التي مازالت تسيطر على مجتمعاتنا الشرقية .

رفضها ليس رفضا انثويا فضائحيا ، انما هو رفض ارادة حرة للاستلاب والاستسلام للذل ، الذي يجعل من نفوس الافراد ، وجوها متشابهة كقطع النقد

قد نفاجأ كيف استطاعت الكاتبة ان تقول هذا كله في قصة لا تتعدى المائة والاحدى والاربعين صفحة ، وفي لغة صريحة وموحية في آن معا ، أعيدت فيها الى الالفاظ مدلولاتها الحية بعد أن تغربت طويلا في مسالك الخلق القصصي الشاذ المعقد . فصدق اللغة هنا نابع عن صدق الواقع ، فهي غنية كغناه ، مشعبة كتشعبه ، محملة مثله بالالم والشقاء والسعادة ، والثورة ، اعاقها في بعض الاحيان ميل الكاتبة العلمي ، وحبها للتحليلات النفس اجتماعية (وهذا يعود الى كون نوال السعداوي طبيبة قبل ان تكون قاصة) هذا الميل الذي كثيرا ما اضعف الاحساس بالتوتر والتشويق في السرد القصصي .

غير أن هذا التحليل الاستقصائي قد ساعد من جهة اخرى على الكشف الدقيق لاكثر المشاعر الانسانية تشابكا وتشعبا ، وعدة الكاتبة في هذا المجال دراية عميقة بالنفس ، استقتها من ثقافتها العلمية ، ومن المعايشة اليومية للواقع .

والجديد في هذا المجال ان نمو الوعي والشعور لدى البطلة يرافقه تحول عضوي فيزيولوجي لا ينفصل عنه ، فالوحدة كاملة بين أبعاد النفس الثلاثة : العقل والشعور والجسد . ولاول مرة تحمل صورة الجسد ابعادا رمزية متعددة تكاد تكون مستحدثة في الكتابة الروائية :

الساقان المضمومتان، المشية الدودية للفتاة، رمز للكبت الجنسي الذي ربيت عليه « لم تكن الساقان تنفصلان ابدا في حركة الخطوات، اذ تظل الساقان ملتصقتين ، والركبتان ملتحمتين ، كانما تضغط بين فخذيها على شيء تخشى وقوعه » .

صورة الانف المرتفع الذي يشق الفضاء ، دليل التحدي ، اما سواد العينين فرمز للارادة الصلبة التي لا تعرف التردد .

« انفها الحاد يشق الكون بغير رفق ، عيناها شديدتا السواد مرفوعتان الى أعلى ، شفتاها مزمومتان في اصرار كالغضب ، او غضب كالاصرار » .

غير ان النزعة العلمية ، دفعت القاصة احيانا الى تجاوز بعض المتطلبات الفنية للبناء الدرامي ، اذ يبدو لنا من غير المقنع ان تكون فتاة الثامنة عشرة هي صاحبة كل هذه الصراعات وكل هذا الوعي للاشياء وهذه المعاناة الوجودية الواعية الناضجة . وتاثر شخوص الرواية بواضعها ليس شيئا غير مشروع ، على الا يكون هناك هوة تفصل بين ما يمكن ان ينوجد فعلا ، وبين ما املته ارادة الكاتب. من هنا الانفصال بين الظروف البيئية التي احاطت بنموذج الرواية وبين صورة البطلة التي رسمتها القاصة ، حتى الصراع الذي يعتري البطلة يبدو احيانا صراعا جدليا تنظيريا اكثر منه صراع الحياة . وهذا يعود الى مشيئة الكاتبة في تضمين روايتها كل الخلفيات النفسية والعلمية حصيلة ثقافتها هي ، وليس نتيجة التنامي الطبيعي لشخصية البطلة . من هنا سقوط الكاتبة في بعض القوالب الجاهزة غير الواقعية (شخصية الاب كممثل لسلطة القمع ، وكراهية الابنة له لا يبدو مقنعا من وجهة النظر الواقعية) ولكن بالرغم من ذلك، فان هذا لا ينتقص من القيمة الفنية للرواية ، مما يجعلنا نكرر ما سبق ان الكاتبة اتت بالكثير الذي يبشر بولادة كتابة روائية جديدة .

بيروت